قصص القرآن

أصحاب الفيل

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

قصص القرآن



أصحاب الفيل

قلم: أحمد بهجت — ريشة: مصطفى حسين

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

وسط صَحراء الجزيرةِ العَربيةِ . . وفي وادٍ تُحيطُ بـه سِلسِلةٌ مِنَ الجِبالِ . . تَنتصِبُ الكَعبةُ . . أَوّلُ بيتٍ وُضِعَ لِتوحيدِ الله في الأرضِ . .

. . . .

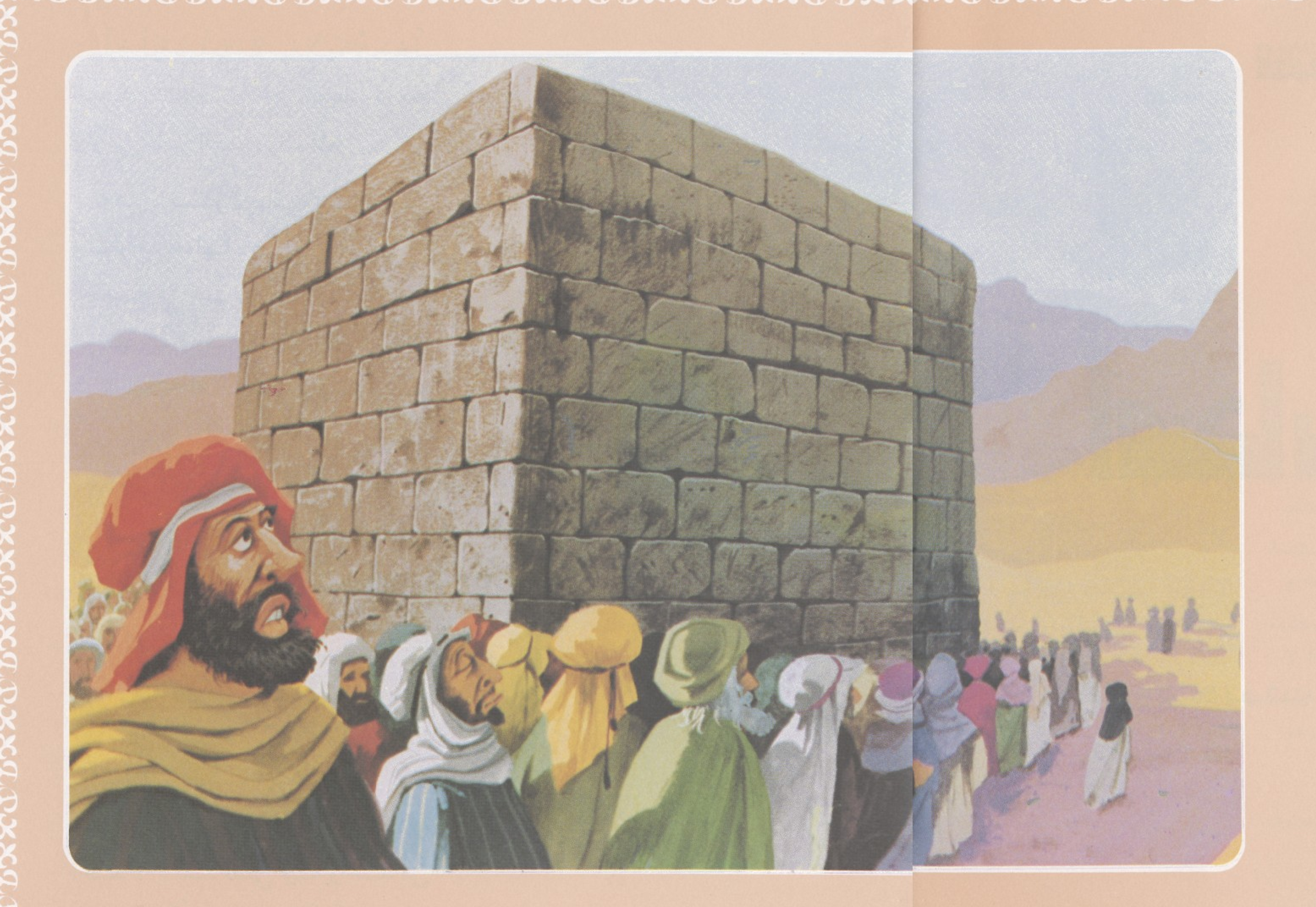
آستمعَ أبرهةُ لِحَديثِ خُبرائِه وسأَلَ : لستُ أَسأَلُكم عن مكانِ الكَعبةِ . . إنني أَعرفُ مَكانَها . . إنما أَسأَلُ عن سرِّ مَكانتِها في قُلوبِ العربِ . .

صمتَ خُبراؤه وَراحوا يُفكِّرونَ . .

ثم قالَ المُهندسُ المِعماريُّ : إنها أَبسطُ أَثرٍ مِعماريّ في العالمِ ، لقد أَرادَ من بَناها أن يُوجِدَ رمزاً لِضعةِ الإنسانِ أَمامَ الله . . لقد عرفَ من بَنى الكَعبةَ أنه ما من جمالٍ في تناسُقِ البِناءِ أو كمالٍ في خُطوطِه ، مهما كان عَظيماً ، يُمكنُ أن يُوفي الفِكرةَ الإلٰهيةَ حقَّها . .

وهكذا قصر نَفسَه على أَبسط شكل يُمكنُ أن يتصوَّرَه العقلُ . . مكعَّبٌ من الحجرِ . .

عاد أَبرهةُ يقولُ : لم تَفهموا ما أُريدُ أن أَسأَلَ عنه . . إنني أَسأَلُ لِماذا يُعظِّمُها العربُ . . لماذا يتوجَّهون إليها . . ولماذا يَطوفونَ حَولها ، ولماذا



يُقبِّلونَ الحجرَ الأسودَ الذي يبدأُ الطَّوافُ من عندِه ؟

صمتَ خُبراءُ أَبرهةَ وقال أَكبرُهم سِنّاً :

ــ يَقولونَ يا سيِّدي إن حِجارَتَها بُنِيتْ من طُمأْنينة قلبِ آدم ، وسَكينةِ قلبِ إبراهيمَ وحُبِّه لله ، وحُلمِ إسماعيلَ وصِدقِه . .

أيضاً يَقولونَ إن المرءَ لا يكادُ يدخلُ المسجدَ الحرامِ حتى يَفيضَ داخِله تيارٌ من الأمنِ العميقِ والسّلامِ . .

وهم يَتعبَّدون بالذَّهابِ إليها والطَّوافِ حَولها . . وهم يَعتقِدونَ أن الكعبةَ هي بيتُ الله . . أو هي رمزٌ لِرَحمةِ الله وغُفرانِه . . وأن من دخلَ هذا البيتَ وطافَ حولَه وصلَّى فيه غُفِرَت ذُنوبه . .

نهضَ أبرهة واقِفاً وقالَ :

لقد بنيتُ للعربِ مَعبداً في اليمنِ . . وأمرتُ العربَ أن يتوجَّهوا إليه . . لم أبخلْ على المعبدِ بشيءٍ . . أثَّثتُه أعظَمَ أثاثٍ في الأرض . . وزيَّنتُه أعظمَ زينَة . .

لِماذا لا يَعبأ به أحدٌ ؟ . لماذا لا يدخُلُه أحدٌ ؟ . لماذا لا يَحترِمُه أحدٌ ؟ . لقد قَضى فيه واحدٌ من العربِ حاجَتَه ! . لقد نفدَ صَبري ولم يعُد أمامي سِوَى الحرب . .

لقد فَشِلْتُ في صرفِ العربِ عن الكعبةِ ، وفَشِلتُ في أن أجعلَ كَنيسَتي تَجذِبُ العربَ ، ولم يعدْ أمامي مفرٌّ من هدمِ الكعبةِ ووضعِ الناسِ أمامَ الأمرِ الواقعِ . . آهدُموا الكعبةَ .

وهكذا أصدَر أبرهة أمرَه بالحربِ وهدْمِ الكعبةِ . . حتى لا يجِدَ العربُ مكاناً يَحجُّونَ إليه غيرَ الكنيسةِ التي بَناها .



أحنَى الوُزراءُ والقادةُ رُؤوسَهُم للطَّاغيةِ . . وبدأَ الجيشُ يَستعدُّ .

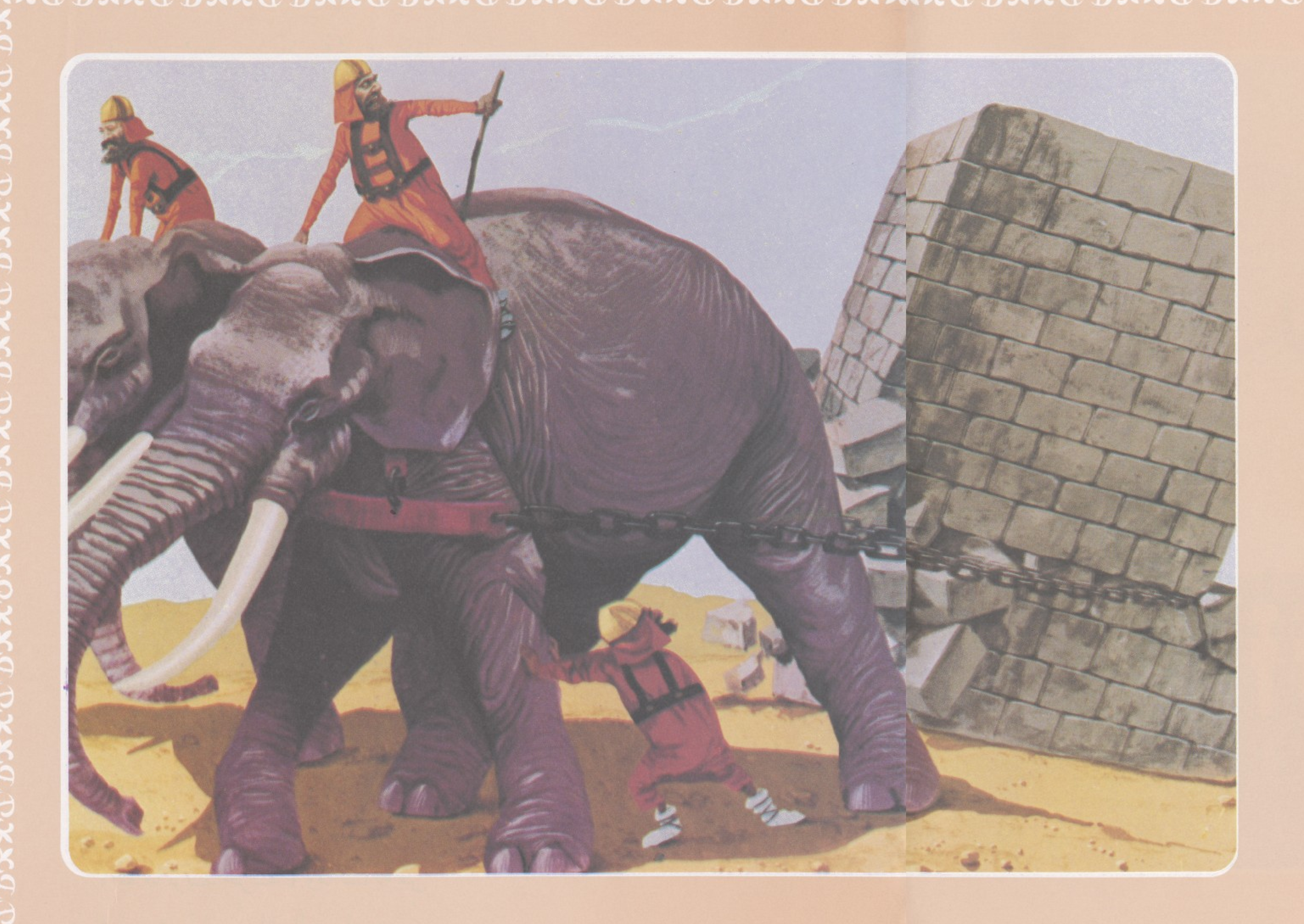
كان جيشُ أبرهةَ من أقوى جُيوشِ العالمِ في ذلك الوقتِ ، وكان الجيشُ يَضمُّ سِلاحاً كامِلاً من الفيلةِ الجبَّارةِ التي تَملكُ قوةً خارِقةً ، وكانتْ هذه

الفيلةُ إذا آندفعتْ نحو شيءٍ دمَّرتْهُ ، وإذا رَبطوها بالسَّلاسل بشيءٍ شَدَّتهُ وحطَّمتهُ .

وأمر أَبرهةُ أن تقومَ الفيلةُ بأَكثر من تَجربةٍ لهدمِ بناء أكبَر من الكعبةِ ، وتدرَّبتِ الفيلةُ على هدمِ ما هو أكبرُ من الكعبةِ ، حتى إذا أمروها بعد ذلك بهدم الكَعبةِ كانت الفِيلةُ على آستعدادٍ لأداءِ مُهمَّتها الأصليَّة ، وتَحطِيم الكعبةِ بسهولةٍ وسُرعةٍ .

آنتهى تدريبُ الجيشِ وآستعدَّ ، فأَصدرَ أَبرهةُ أوامِرَه بالتَّحركِ .

وتَحرَّكَ جيشُ أَبرهَةَ ، وكان يَستخدمُ الفيلةَ الشَّرسةَ نفس آستِخدامنا للدَّباباتِ اليوم . . وكان جَيشُه يَتفوَّقُ بهذا السلاحِ على سائرِ الجُيوشِ المَوجودَةِ يَومئذٍ . .



سمعَ العربُ بقَصدِ أَبرهة ، وعزَّ عليهم أن يتوجَّه لِهدمِ كَعبتِهم ، وكان العربُ وَثنيِّين ، ورغمَ ذلك كانوا يَعتزُّونَ بالكَعبة ، فقرَّروا الدِّفاعَ عنها ، وآعترضَ سيرُ الجيشِ رجلٌ من أَشرافِ اليمنِ آسمُه ذو نَفر ، فَدعا قومَه وسائرَ العربِ إلى حربِ أبرهةَ وجهادِه عن البيتِ الحرام .

وتكوَّن جيشُ ذي نفرٍ وقابلَ جيشَ أَبرهةَ ، ولكن أَبرهةَ هزمَ العربَ وأَسرَ ذا نفرٍ . .

بعد ذلك تعرَّضَ لجيشِ أَبرهةَ نفيلُ بن حبيبٍ مع قَبيلتينِ من العربِ فهزمَهُم أَبرهة وأَسرَ نفيلاً ، وراحَ جيشُ أَبرهةَ يَهزمُ في طريقهِ إلى مكَّةَ كلَّ من يَعترضُ جيشَهُ ، حتى إذا آقتربَ من مكَّة كان الخوفُ قد سَبقَه إليها . .



وأَثار وجودُ الجيشِ العدوِّ قُربَ مكةَ حماسَ القبائِلِ العربيّةِ فآجتَمعوا ، ولكنَّهم بعد آستعراضِ المَوقفِ أَدركوا أن لا طاقةَ لهم ولا قُدرةَ لديهِم على التَّصدِّي لجيشِ أَبرهةَ ، فَتركوا ذلك وبَدأوا في تَهجيرِ مكةَ وإخلائِها من سُكانِها .

وبعثَ أَبرهةُ رَسولاً إلى مكةَ ، كان الرسولُ يحملُ رسالةً تقولُ :

إن الملكَ لم يأتِ لِحربِهم ، وإنما جاءَ لِهَدمِ الكعبةِ ، فإن لم يَتعرَّضوا له فلا حاجَةَ له في دِمائِهم ، فإذا كان سيِّدُ البلدِ لا يُريدُ الحربَ فَليَجيئُوا به إلى الملكِ .

وآلتقى رسولُ أَبرهةَ بعبدِ المُطَّلبِ ، وكان سيِّدَ مكةَ . . نقلَ رسولُ أَبرهةَ رسالةَ الملكِ إلى عبدِ المُطَّلبِ . وقال عبدُ المطَّلبِ :

واللهِ مَا نريدُ حربَه ، وما لَنا به من طاقةٍ ، هذا بيتُ اللهِ الحرامِ وبيتُ خَليلِه إبراهيمَ عليه السَّلام ، فإن يَمنعه فهو بيتُه وحَرمُه ، وإن يخلُّ به فواللهِ ما عِندنا دفاعٌ عنه .

وآنطلقَ رسولُ الملكِ مع عبدِ المُطَّلبِ إلى أَبرهةَ ، وكان جيشُ أَبرهةَ قد آغتصبَ مائتيْ بعيرٍ لعبدِ المُطَّلبِ كانت تَرعىَ خارجَ مكةَ .

كان عَبدُ المطَّلبِ وَسيماً مُهيباً عَظيماً ، فلما رآهُ أَبرهةَ أَحسَّ بالإحترامِ وأَجلسهُ جِوارهُ على بساطٍ . . قالَ لِترجُمانِهِ : قل له ما حاجَتكَ .

قال عبدُ المطَّلبِ : حاجَتي أن يردَّ الملكُ عليَّ مائتي بعيرٍ أصابها لي .

تغيَّرَ وجهُ أبرهةَ وَزايلهُ آحترامُه نحو عبدِ المطَّلبِ وقال لِترجُمانِه : قُلْ له قد



كنتَ أَعجبْتَني حين رأَيتُكَ ، ثم زَهدتُ فيك حين كلَّمتَني ، أَتُكلِّمُني في مائتيْ بعيرٍ أَصبتُها لـك وتَتـركُ الحـديثَ عن بيتٍ هو دينُكَ ودينُ آبائِكَ !

قـال عبـدُ المُـطَّلبِ : أنـا ربُّ الإبلِ . . وللبيتِ ربٌّ يَحميهِ .

قال أبرهةُ مُتحدِّياً :لن يَحميهِ منِّي .

قال عبدُ المطَّلبِ : أنت وذاكَ .

آنتهى الحِـوارُ بين عبدِ المـطَّلبِ وأَبرهةَ ، وأَعطاهُ الملكُ ما آغتصبَـه من الإبـلِ ، وآنصرفَ عبدُ المـطلبِ إلى قـريشٍ فـأَخبَرهُم الخبرَ ، وأَمـرهُم بالخُروجِ من مكةَ واللُّجوءِ إلى كهـوفِ الجِبَـالِ . . وخرجتْ آمنةُ بنتُ وهبٍ إلى كهـوفِ الجبالِ وهي تَحمِـلُ في بطنِها سيدَّ البشرِ رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ .

وأُخلِيَت مكـة من سُكَّانِها تمامـاً ، وخَـرجَـتِ العـربُ إلى الجـبَـالِ يَـدعونَ الله أن يمنعَ العـدوَّ من هـدمِ بيتِه . .

ونُفِـخَ في أَبواقِ الحـربِ وأُعـطيت إشارة الهجومِ . .

ولـكن الـجَـيشَ لـم يَـتـحـرَّكْ . .
رَفضتِ الفِيلةُ أن تتحرَّكَ من مكانِها . .
راحَ مُدرِّبوها يَضربونها بالسِّياطِ لتتحرَّكَ ولكنَّها رفضَتْ أن تتزحْزحَ . .

وتَسـاءَلَ أَبـرهـة لمـاذا لا يَتحـرَّكُ الجيشُ ، وجاءَهُ الجوابُ :

إن الفيلةَ تَـرفُضُ الحَركَـةَ . . وأَمـرَ بِتشديدِ الضَّربِ عليها وأُعـطِيتْ إشارةُ الهُجومِ مرةً ثانيةً . .

ولكن الجيشَ ظلَّ جامِداً في مكانِـه لا يتحرَّكُ . .

كانتِ المَلائكةُ قد حَبستِ الفيلةَ في

أَماكِنِها وأَلصَقتها بالأرضِ فلم تَعُدْ الفِيلةُ تستطيعُ أن تَنتقِلَ من مكانِها أَو تتحرَّكَ أو تقومَ أو تُطيعَ أَوامرَ مُدرِّبيها .

وقعَ شيءٌ عجيبٌ في هذه اللحظةِ . .

آمتلأتِ السماءُ بطُيورٍ غامِضةٍ سوداءَ تَطيرُ في أَسرابٍ مُتلاحِقةٍ . .

كانت الطيُّورُ من الكَثرةِ بحيث صنعتْ ما يُشبِهُ السَّحابةَ السَّوداءَ التي حَجبتْ وجهَ الشمسِ . . ورفعَ أبرهةُ رأْسَهُ إلى السماءِ فَفُوجِيءَ بهذه السحابةِ ، وآنقضَّتِ الطيورُ على الجيشِ وأَلقتْ من مَناقيرِها حجارةً صغيرةً لا أحدَ يعلمُ من أين جاءَت بها أو أَحضرَتها . لم تكدْ هذه الطيرُ الأبابيلُ التي أَرسلها الله تَرمي ما تَحمِلُه في أفواهِها من الحِجارةِ على جيشِ أبرهةَ ، حتى تحوَّلَ المكانُ فجأةً إلى قِطعةٍ من قلب الجَحيمِ .

زاد صِراخُ الفيلة ورُعبُها ، وآنفلتتْ من مكانِها وهربتْ في آتجاهِ الصحراءِ ، وتمزَّقَ جيشُ أبرهةَ وآنكسَر ، وسُحقتِ القوةُ المُعتديةُ تماماً . .

كان واضِحاً أَن الله تباركَ وتعالى يَضربُ من جاءَ يَهدِمُ بَيتَه . راحت الانفِجاراتُ تَتوالى كلما أَلقتِ الطيرُ الأبابيلُ ما تحملُه من حجارةٍ جاءَت من أعماقِ الجحيمِ . .

وفوجيءَ جيشُ أبرهةَ بهذا الهُجومِ الخاطفِ .

كان الجيشُ مهيأً لتلقِّي ضَربة من الأمام . . أو الخلفِ أو اليمينِ أو الشمالِ ، لكنه لم يكن مُدرَّباً لتلقِّي



ضَرَباتٍ من السّماءِ . .

ونَجحتِ المُفاجَأةُ أن تُدمِّرَ الروحَ المَعنويةَ لِجيشِ أبرهَةَ ، كما أن الضَّربَاتِ الأخرَى دمَّرتْ قِواهُ المادِّية . . وهكذا تحلَّلَ جيشُ أبرهة أمامَ المُفاجَأتين تماماً . . لم يعُدْ هناكَ جيشٌ يُحَارِبُ . . تَحوَّلَ المَوقِفُ من النَّقيضِ إلى النَّقيضِ .

آنهزمَ جيشُ أبرهةَ وأعطى ظَهرَهُ للمَعركةِ وبدأَ يَفرُّ أو يَحترِقُ أو يُحاوِلُ النجاةَ بجِلدِه . .

كان واضِحاً لأصحابِ الفيلِ أنهم يُواجهونَ قُوةً لا قُدرَةَ لهم عليهَا ولا طاقَةَ لهم بها . .

آكتشفَ أبرهةُ فجأَةً أن الفِيلةَ لم تَعُدْ تَحمِيهِ ، وإنما صارتْ على العكسِ من ذلك مصدرَ خَطرٍ شَديدٍ عليه وعلى جُنودِه .

لقد أصابَ الفِيلةَ ذُعرٌ من أسرابِ الطَّيرِ الأبابيلِ ، ولهذا هاجتْ فجأَةً . . مزَّقتْ سلاسِلَها الحَديدية وآنطلقتْ كالإعصارِ المُدمِّرِ تَدوسُ الجُنودَ وتَسحقُهم تحت أقدامِها الثَّقيلةِ وأجسادِها الضَّخمةِ .

أصابَ الجنودَ ما أصابَ الفِيلةَ من ذُعرٍ لم يَحسبوا حِسابَه ، إنهم الآن يُواجِهونَ قَصفاً من السماءِ ذاتها ، وَهو قَصفٌ مُخيفٌ مُدمِّرٌ لا يُبقي على شيءٍ ولا يُفلتُ شيئاً . .

وهكذا آنطلقَ كلُّ إنسانٍ أو حيوانٍ في آتجاهٍ يظُنُّ أن فيه النجاةَ . . ولم تكن جميعُ الاتجاهاتِ قادرةً على توفيرِ أي نجاةٍ من أي نوعٍ . .

إن الهلاكَ كان ينصبُّ على رُؤوسِ الجيشِ من السماءِ موجاتٍ وراءَ



موجاتٍ . . وَبدا للجيشِ أن هذه الطيرَ الأبابيلَ بلا نهايةٍ . .

وتصاعدَ العذابُ وآختلطتِ الآهاتُ بـأنينِ الجرحىَ بصُـراخِ المُحترِقينَ بدمدَمةِ المَعركةِ بصوتِ الموتِ الزّاحفِ .

آنتهتِ المعركةُ وهُـزِمَ جيشُ أَبرهـةَ وذابَ مِثلمـا تَذوبُ سَحـابةٌ سـوداءُ في فَضاءِ السماءِ . .

لم يَعُد لِجيشِ أَبرهةَ أَثرٌ . .

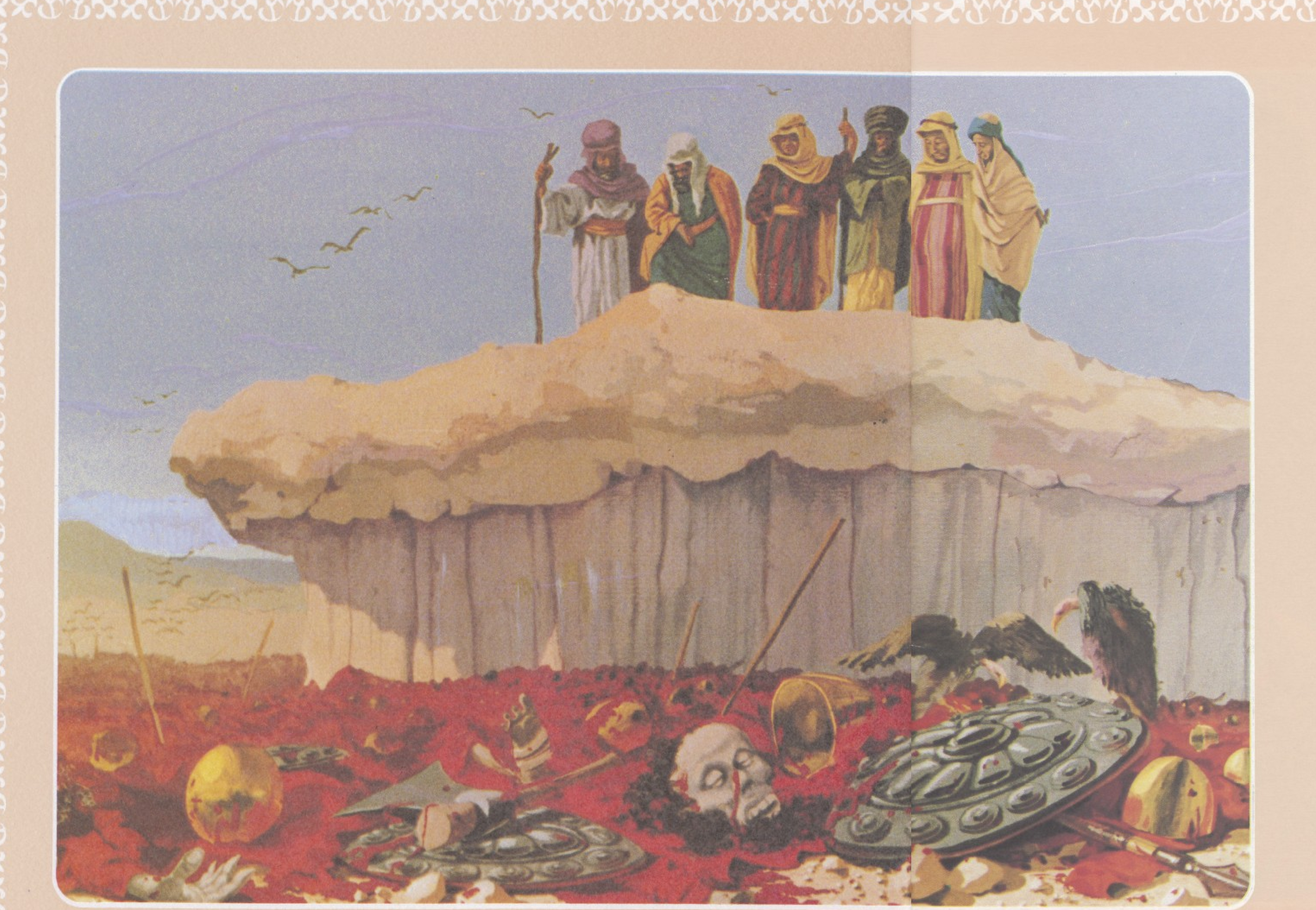
ووقفَ سـادةُ مكةَ يتـأَملونَ ما جَـرى للجيشِ المُهـاجِم . . لقـد تـحـوَّلَ الجيشُ الجبارُ إلى شيءٍ يُشبِهُ الـطعامَ الذي تأكُلهُ الـدَّوابُّ ، ثم تَهضمُه ، ثم تُخرجِ بَقاياه بعد هَضمِه ، ثم تَتركُ هذه البقايا للشَّمسِ لِتُجَفِّفَهـا حتى تُطيِّـرها الرياحُ . .

بسطَ الموتُ ظِلالهُ على المكانِ . . ولم يعُد باقياً من جيشِ أَبرهةَ سوى هذا العصفِ المأكول .

قـال عبد المـطلب وهو يتـأَملُ آثـارَ جيشِ أَبرهةَ :

ــ سبحـانَ الله وبحمـدِه . . لقـد حمىَ الله بيتَـه مـن العـدوِّ . . هـذه قُـدرةُ الله تعـالىَ . . وهؤلاءِ الهَلكَى أَعداؤُه . . أَطوفُ طوافَ الشُّكرِ حـول البيتِ إن شاءَ الله . لِنرسـل أَولاً إلى أهلِ مكةَ الـذين خَرجـوا من ديـارِهم خـوفاً من بـطشِ أَبرهـةَ أَن يَعـودوا إلى دِيارِهِم في مكةَ . . لقـد حمَى الله بيتَه العتيق وحفِظَه . .

وعـاد أهـلُ مَكـةَ إلى ديـارِهم ومسـاكِنِهم وسمُّـوا هـذا العـامَ بعـامِ الفيـلِ ، وفي هـذا العـامِ وُلِـدَ خـاتَمُ النَّبيينَ مُحمـدُ بن عبـد الله صلّى الله عليه وسلّم . .



مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝

صدق الله العظيم